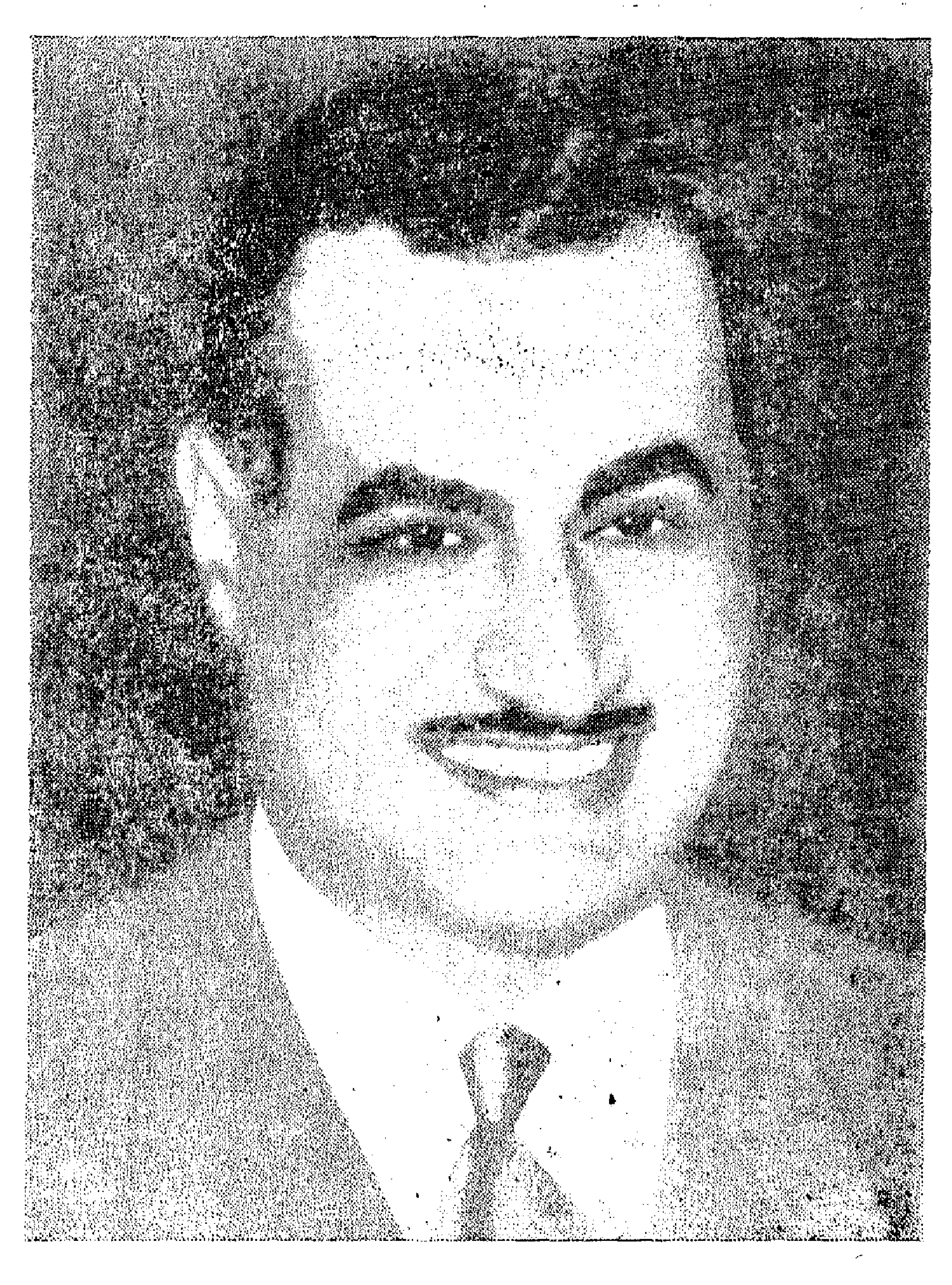

جمال عبد الناصر
فلسفة الثورة

فلسفة الثورة

جمال عبد الناصر



الرئيس جمال عبد الناصر

مقدمة

ان هذه الخواطر ليست محاولة لتأليف كتاب ...

ولا هي محاولة لشرح أهداف ثورة ٢٣ يوليو وحوادثها ... انما هي شيء آخر تماما ...

انها أشبه ما تكون بدورية استكشاف ...

انها محاولة لاستكشاف نفوسنا لكى نعرف من نحن ومادورنا فى تاريخ مصر المتصل الحلقات ...

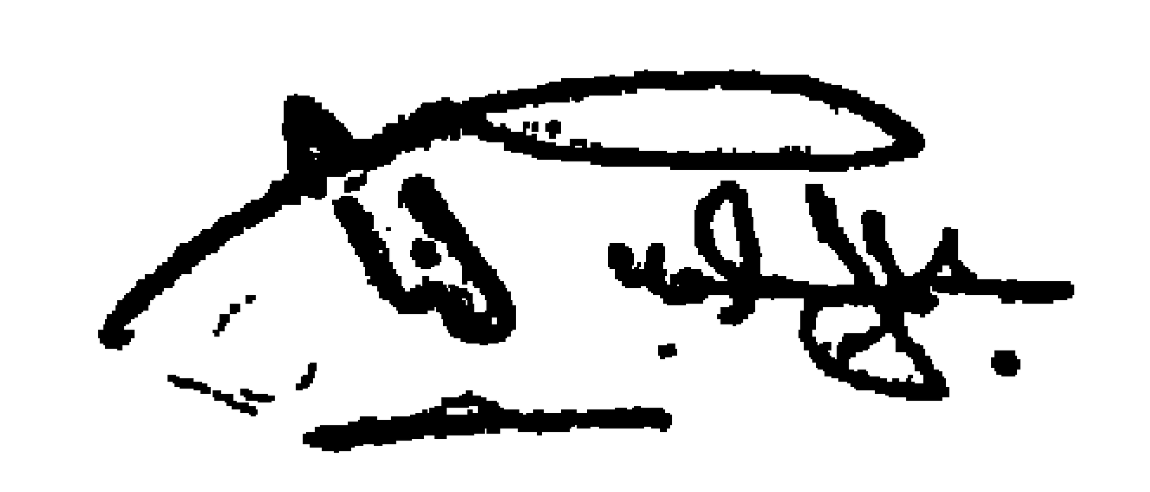
ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا فى الماضى والحاضر، لكى نعرف فى أى طريق نسير ...

ومحاولة لاستكشاف أهدافنا والطاقة التى يجب أن نحشدها لنحقق هذه الأهداف ...

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا ، لنعرف أننــا لا نعيش فى جزيرة يعزلها الماء من جميع الجهات ...

هذا هو الذى قصدت اليه ...

مجرد داورية استكشاف فى الميــدان الذى نحــارب فيه فى معركتنا الكبرى من أجل تحرير الوطن من كل الأغلال ...



الجـزء الأول

ـ ليست فلسفة ـ محاولات لم تتم ـ ليست مجرد تمرد ـ كنا في فلسطين وأحلامنا في مصر ـ احمد عبد العزيز قبل أن يموت ـ درس من اسرائيل ـ أيام التلمذة ـ الحقيقة والفراغ ـ لماذا كان لابد أن يتحرك الجيش ـ الصورة الكاملة ـ الطليعة والجموع ـ اقصى اماني ـ نموذج من أعضاء مجلس الثورة ـ أزمات نفسية ـ ثورتان في وقت واحد ـ لكيلا يقع تصادم على الطريق .

قبل أن أمضى فى هذا الحديث أريد أن أقف قليلا عند كلمة « فلسفة » .

ان الكلمة ضخمة وكبيرة ...

وأنا أحس وأنا واقف حيالها أنى أمام عالم واســع ليس له حدود ، وأشعر فى نفسى برهبة خفية تمنعنى من أن أخوض فى بحر ليس له قاع ، ولا أرى له على البعد ، من الشاطىء الذى أقف فيه شاطئا آخر انتهى اليه .

والحق أنى أريد أن أتجنب كلمة فلسفة فى هذا الذى سأقوله، ثم أنا أظن أنه من الصعب على أن أتحدث عن فلسفة الثورة .

من الصعب لسببين :

أولهما : أن الحديث عن فلسفة ثورة ٢٣ يوليــو يلزمه أســاتذة يتعمقون فى البحث عن جذورها الضاربة فى أعماق تاريخ شعبنا .

وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يمــلؤها الهبــاء وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز الى الوجود دون مقدمات .

ان كفاح أى شعب ، جيلا بعد جيل ، بناء يرتفع حجرا فوق حجر ..

وكما أن كل حجر فى البناء يتخذ من الحجر الذى تحته قاعدة يرتكز عليها ، كذلك الأحداث فى قصص كفاح الشعوب .

كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه ، وهو فى نفس الوقت مقدمه لحدث مازال فى ضمير الغيب ..

***

ولست أريد أن أدعى لنفسى مقعد استاذ التاريخ ...
ذلك آخر ما يجرى به خيالى .

ومع ذلك فلو حاولت محاولة تلميذ مبتدىء ، فى دراسة قصة كفاح شعبنا ، فانى سوف أقول مثلا ان ثورة ٢٣ يوليو هى تحقيق للأمل الذى راود شعب مصر ، منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه بأيدى أبنائه ، وفى أن تكون له نفسه الكلمة العليا فى مصيره ...

لقد قام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذى تمناه ، يوم تزعم السيد عمر مكرم حركة تنصيب محمد على واليا على مصر ، باسم شعبها ...

وقام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذى تمناه ، يوم حاول عرابى أن يطالب بالدستور ...

وقام بمحاولات متعددة ، لم تحقق له الأمل الذى تمناه فى فترة الغليان الفكرى التى عاشها بين الثورة العرابية وثورة سنة ١٩١٩ .

وكانت هذه الثورة الأخيرة ــ ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول ـ محاولة أخرى لم تحقق له الأمل الذى تمناه .

وليس صحيحا أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التى أسفرت عنها حرب فلسطين ، وليس صحيحا كذلك أنهـا قامت بسبب الأسلحة الفاسدة التى راح ضحيتها جنود وضباط ، وأبعد من ذلك عن الصحة ما يقال ان السبب كان أزمة انتخابات نادى ضباط الجيش .

انما الأمر فى رأيى كان أبعد من هذا وأعمق أغوارا .

ولو كان ضباط الجيش حاولوا أن يثوروا لأنفسهم لانه قد غرر بهم فى فلسطين ، أو لأن الأسلحة الفاسدة أرهقت أعصابهم ، أو لأن اعتداء وقع على كرامتهم فى انتخابات نادى ضباط الجيش، لما كان الأمر يستحق أن يكون ثورة ، ولكان أقرب الأشياء الى وصفه أنه مجرد تمرد ، حتى وان كانت الأسباب التى أدت اليـه منصفة عادلة فى حد ذاتها .

لقد كانت هذه كلها أسبابا عارضة ...

وربما كان أكبر تأثير لها أنها كانت تستحثنا على الاسراع فى طريق الثورة . ولكننا كنا من غيرها نسير على هذا الطريق .

وأنا أحاول اليوم بعد كل ما مر بى من أحداث ، وبعد سنوات طويلة من بدء التفكير فى الثورة ، أن أعود بذاكرتى وأتعقب اليوم الأول الذى اكتشفت فيه بذورها فى نفسى .

ان هذا اليوم أبعد فى حياتى من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١؛ أيام ابتداء أزمة نادى الضـبـاط ؛ ففى ذلك الوقت كان تنظيم

الضباط الأحرار قائما يباشر عمله ونشـاطه ، بل أنا لا أغالى اذا قلت ان أزمة انتخابات النـادى أثارها أكثـر من أى شىء آخر نشاط الضباط الأحرار ، فقد شئنا فى ذلك الوقت أن ندخل معركة نجرب فيها قوتنا على التكتل وعلى التنظيم .

وهذا اليوم ــ فى حياتى أيضا ــ أبعد من بدءفضيحةالأسلحة الفاسدة ، فقد كان تنظيم الضباط الأحرار موجودا قبلها،وكانت منشوراتهم أول نذير بتلك المأساة ، وكان نشاطهم وراء الضـجة التى قامت حول الأسلحة الفاسدة .

بل ان هذا اليوم فى حياتى أبعد من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ ذلك اليوم الذى كان بداية حياتى فى حرب فلسطين .

***

وحين أحاول الآن أن أستعرض تفاصيل تجاربنا فى فلسطين أجد شيئا غريبا .

فقد كنا نحارب فى فلسطين ، ولكن أحلامنا كلهـا كانت فى مصر .

كان رصاصنا يتجه الى العدو الرابض أمامنا فى خنادقه.ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذى تركناه للذئاب ترعاه...

وفى فلسـطين كانت خلايا الضـباط الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع فى الخنادق والمراكز .

فى فلسطين جاءنى صلاح سالم وزكريا محيى الدين،واخترقا الحصار الى الفالوجة ، وجلسنا فى الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية ، وكان حديثنا الشاغل وطننا الذى يتعين علينا أن نحاول انقاذه ...

وفى فلسطين جلس بجوارى مرة كمال الدين حسين وقال لى وهو ساهم الفكر شارد النظرات :

ــ هل تعلم ماذا قال لى أحمد عبد العزيز قبل أن يموت ؟

قلت :

ــ ماذا قال ...؟

وقال كمال الدين حسين وفى صوته نبرة عميقة وفى عينيه نظرة أعمق :

ــ لقد قال لى : اسمع يا كمال ، ان ميدان الجهاد الأكبر هو فى مصر ...

***

ولم ألتق فى فلسطين بالأصدقاء الذين شاركونى فى العمل من أجل مصر ، وانما التقيت أيضا بالأفكار التى أنارت أمامى السبيل.

وأنا أذكر أيام كنت أجلس فى الخنادق وأسرح بذهنى الى مشاكلنا ...

كانت الفالوجة محــاصرة ، وكان تركيز العدو عليهــا ضربا بالمدافع والطيران تركيزا هائلا مروعا .

وكثيرا ما قلت لنفسى :

« ها نحن هنا فى هذه الجحور محاصرين ، لقد غرر بنا،دفعنا الى معركة لم نعد لها ، لقد لعبت بأقدارنا مطــامع ومؤامرات وشهوات ، وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح » .

وحين كنت أصل الى هذا الحد من تفكيرى كنت أجدخواطرى تقفز فجأة عبر ميادين القتال ، وعبر الحــدود ، الى مصر ، وأقول لنفسى :

هذا هو وطننا هنــاك ، انه « فالوجة » أخرى على نطــاق كبير ...

ان الذى يحدث لنا هنا صورة من الذى يحــدث هناك ... صورة مصغرة ...

وطننا هو الآخر حاصرته المشــاكل والأعــداء ، وغرر به ... ودفع الى معركة لم يعد لها ، ولعبت بأقداره مطــامع ومؤامرات وشهوات ، وترك هناك تحت النيران بغير سلاح !

***

وأكثر من هذا ، لم يكن الأصدقاء هم الذين تحدثوا معى عن مستقبل وطننا فى فلسطين ولم تكن التجارب هى التى قرعت أفكارنا

بالنذر والاحتمالات عن مصيره، بل ان الأعداء ايضا لعبوا دورهم فى تذكيرنا بالوطن ومشاكله ...

ومنذ أشهر قليلة قرأت مقالات كتبها عنى ضـابط اسرائيلى اسمه « يردهان كوهين » ونشرتها له جريدة «جويشن اوبزرفر» وفى هذه المقالات روى الضابط اليهودى كيف التقى بى أثنـاء مباحثات واتصالات عن الهدنة وقال :

« لقد كان الموضوع الذى يطرقه جمال عبد الناصر معى دائما هو كفاح اسرائيل ضد الانجليز ، وكيف نظمنـا حركة مقاومتنـا السرية لهم فى فلسطين وكيف استطعنا أن نجنـد الرأى العام فى العالم وراءنا فى كفاحنا ضدهم » .

***

ثم ان هذا اليوم ـــ اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى نفسى ـــ أبعد من حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذى كتبت بعـده خطابا الى صديق قلت له فيه :

« ما العمل بعد أن وقعت الواقعـة وقبلنـاها مستسـلمين خاضعين خانعين ؟ »

الحقيقة أنى أعتقد أن الاستعمار يلعب بورقة واحدة فى يده بقصد التهديد فقط ، ولكن لو أنه أحس أن بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لا نسحب كأى امرأة من العاهرات ..

وطبعا هذا حاله او تلك عادته ..

أما نحن ، أما الجيش ، فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الروح المعنوية ، فبعد ان كنت ترى الضباط لا يتكلمون الا عن الفساد واللهو . اصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس فى سبيل الكرامة ، وأصبحت تراهم وكلهم ندم لأنهم لم يتدخلوا ـ مع ضعفهم الظاهر ـ ويردوا للبلاد كرامتها،ويغسلوها بالدماء ، ولكن غدا لناظره قريب ...

لقد حاول بعضهم بعد الحادث أن يعملوا شيئا بغية الانتقام ، ولكن الوقت كان قد فات ، أما القلوب فكلها نار وأسى ...

والواقع أن هذه الحركة .. ان هذه الطعنة ردت الروح الى بعض الأجساد ، وعرفتهم أن هناك كرامةيجب أنيستعدوا للدفاع عنها. وكان هذا درسا قاسيا .

وكذلك فان هذا اليوم أبعد فى حياتى من الفوران الذىعشت فيه أيام كنت طالبا أمشى مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ ــ وقد عاد الدستور بالفعل ــ فى سنة ١٩٣٥ .. وأيام كنت أسعى مع وفود الطلبة ، الى بيوت الزعماء نطلب منهم أن يتحدوا من أجل مصر ، وتألفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ بالفعل على أثر هذه الجهود .

وأذكر أننى فى فترة الفوران هذه كتبت خطابا الى صديقمن أصدقائى قلت فيه ، وكان تاريخه ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ :

« أخى ...

خاطبت والدك يوم ٣٠ اغسطس فى التليفون وقد سألته عنك فأخبرنى أنك موجود فى المدرسة ..

لذلك عولت على أن أكتب اليك ما كنت سأكلمك فيه تليفونيا ..

قال الله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ... »

فأين تلك القوة التى نستعد بها لهم ؟

ان الموقف اليوم دقيق ، ومصر فى موقف أدق ... ونحن نكاد نودع الحياة ونصافح الموت ، فان بناء اليأس عظيم الأركان، فأين من يهدم هذا البناء ...؟

ثم مضيت فى هذا الخطاب الى آخره ...

واذن فمتى كان ذلك اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى أعماقى ؟... انه بعيد

فاذا أضيف الى هذا كله ، أن تلك البذور لم تكن كامنة فى أعماقى وحدى ، وانما وجدتها كذلك فى أعماق كثيرين غيرى هم الآخرون بدورهم لا يستطيع الواحد منهم أن يتعقب بداية وجودها داخل كيانه ، لاتضح اذن أن هذه البذور ولدت فى أعماقنا حين ولدنا ، وأنها كانت أملا مكبوتا خلقه فى وجداننا جيل سبقنا ..

ولقد استطردت وراء هذا كله لأشرح السبب الأول الذى من أجله وجدت من الصعب على أن أتحدث عن فلسفة الثورة وقلت

ان هذا الحديث يلزمه اساتذة يتعمقون فى البحث عن جـذورها الضاربة فى أعماق تاريخ شعبنا ...

أما السبب الثانى : فهو أننى كنت بنفسى داخل الدوامة العنيفة للثورة .

والذين يعيشون فى أعمـاق الدوامة قد تخفى عليهم بعض التفاصيل البعيدة عنها ...

وكذلك كنت بايمانى وعقلى وراء كل ما حـدث ، وبنفس الطريقة التى حدث بها ، واذن فهل أستطيع أن أتجرد من نفسى حين أتكلم عنه ، وحين أتكلم عن المعانى المستترة وراءه ؟

أنا من المؤمنين بأنه لا شىء يمكن أن يعيش فى فراغ .

حتى الحقيقة لا يمكن أن تعيش فى فراغ ..

والحقيقة الكامنة فى أعماقنا هى : ما نتصوره أنه الحقيقة، أو بمعنى أصح : هو الحقيقة مضافا اليها نفوسنا ..

نفوسنا هى الوعاء الذى يعيش فيه كل ما فينا ، وعلى شكل هذا الوعاء سوف يتشكل كل ما يدخل فيه ، حتى الحقائق .

وأنا أحاول ــ بقدر ما تستطيع طاقتى البشرية ــ أن أمنع نفسى من أن تغير كثيرا من شكل الحقيقة ، ولكن الى أى حـد سوف يلازمنى التوفيق ؟

هذا سؤال .

وبعده أريد أن أكون منصفا لنفسى ، ومنصفا لفلسفة الثورة، فأتركها للتاريخ يجمع شكلها فى نفسى ، وشكلها فى نفوس غيرى ، وشكلها فى الحوادث جميعا ، ويخرج من هـذا كله بالحقيقـة كاملة ..

***

واذن فما الذى أريد أن أتحدث عنه اذا كنت قد استبعدت كلمة « فلسفة » ؟ الواقع أن الذى أملكه فى هذا الصدد شيئان :

اولهما : مشاعر اتخذت شكل الأمل المبهم ، ثم شكل الفكرة المحددة ، ثم شكل التدبير العملى ، موضع التنفيذ الفعـلى فى منتصف ليل ٢٣ يوليو حتى الآن ..

وعن هذه المشاعر والتجارب أريد أن أتحدث ..

لطالما ألح على خواطرى سؤال ، هو :

« هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟ » .

لقد قلت منذ سطور ، ان ثورة ٢٣ يوليو كانت تحقيقا لأمل كبير راود شعب مصر ، منذ بدأ فى العصر الحديث يفـكر فى أن يكون حكمه فى أيدى أبنائه ، وفى أن تكون له نفسه الكلمة العليا فى مصيره ...

واذا كان الأمر كذلك ، ولم يكن الذى حدث يوم ٢٣ يوليو تمردا عسكريا ، وليس ثورة شعبية ، فلمــاذا قدر للجيش ، دون غيره من القوى ، أن يحقق هذه الثورة ؟

ولقد آمنت بالجندية طول عمرى ، والجندية تجعل للجيش واجبا واحدا ، هو أن يموت على حدود وطنه ، فلماذا وجدجيشنا نفسه مضطرا للعمل فى عاصمة الوطن ، لا على حدوده ؟

ومرة أخرى،دعونى أنبه الى أن الهزيمة فى فلسطين،والأسلحة الفاسدة ، وأزمة نادى الضباط .. لم تكن المنــابع الحقيقية التى تدفق منها السيل ، لقد كانت كلها عوامل مساعدة على سرعــة التدفق ، ولكنها ــ كما سبق أن قلت ــ لا يمكن أبدا أن تكون هى الأصل والأساس .

واذن لماذا وقع على الجيش هذا الواجب ؟.

قلت : ان هذا السؤال طالما ألح على خواطرى ...

ألح عليها ونحن فى دور الأمل والتفكير والتدبير بعــد ٢٣ يوليو .

وألح عليها فى مراحل كثيرة من التجربة بعد ٢٣ يوليو .

ولقد كانت أمامنا مبررات مختلفة قبل ٢٣ يوليو تشرح لنــا لماذا يجب أن نقوم بالذى قمنا به ...

كنا نقول : اذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به ؟

وكنا نقول : كنا نحن الشبح الذى يؤرق به الطـاغية أحلام الشعب ، وقد آن لهذا الشبح أن يتحول الى الطاغية فيبدد أحلامه هو ...

وكنا نقول غير هذا كثيرا ، ولكن الأهم من كل ما كنا نقوله، اننا كنا نشعر شعورا يمتد الى اعمـاق وجودنا بأن هذا الواجب واجبنا ، واننا اذا لم نقم به فاننا نكون كأننا قد تخلينا عن أمانة مقدسة نيط بنا حملها ...

***

ولكنى أعترف أن الصورة الكاملة لم تتضح فى خيالى الا بعد فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو ...

وكانت تفاصيل هذه التجربة ، هى بعينها تفاصيل الصورة..

وأنا أشهد أنه مرت على بعد يوم ٢٣ يوليـو نوبات اتهمت فيها نفسى وزملائى وباقى الجيش بالحمـاقة والجنـون الذى صنعناه فى ٢٣ يوليو ...

لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة، وأنها لا تنتظر الا طليعة تقتحم أمامها السور ، فتندفع الأمة وراءها صفوفا متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدسا الى الهدف الكبير ...

وكنت أتصور دورنا على أنه دور طليعة الفـدائيين ، وكنت أظن أن دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات ، ويأتى بعدها الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير، بل

قد كان الخيال يشط بى أحيانا فيخيل الى أنى أسمع صليل الصفوف المتراصة وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم الى الهدف الكبير ، أسمع هذا كله ويبدو فى سمعى من فرط ايمانى به حقيقة مادية ، وليس مجرد تصورات خيال ...

ثم فاجأنى الواقع بعد ٢٣ يوليو ...

قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير ...

وطال انتظارها ...

لقد جاءتها جموع ليس لها آخر ... ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال !

كانت الجموع التى جاءت أشياعا متفرقة ، وفلولا متناثرة ، وتعطل الزحف المقدس الى الهدف الكبير ، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر ...

وساعتها أحسست وقلبي يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة أن مهمة الطليعة لم تنته فى هذه الساعة ، وانما من هذه الساعة بدأت ...

كنا فى حاجة الى النظام ، فلم نجد وراءنا الا الفوضى ...

وكنا فى حاجة الى الاتحاد ، فلم نجد وراءنا الا الخلاف ...

وكنا فى حاجة الى العمــل ، فلم نجــد وراءنا الا الخنــوع والتكاسل ...

ومن هنا وليس من أى شيء آخر ، أخذت الثورة شعارها.

***

ولم نكن على استعداد ...

وذهبنا نلتمس الرأى من ذوى الرأى،والخبرة من أصحابها...
ومن سوء حظنا لم نعثر على شيء كثير ...

كل رجل قابلناه لم يكن يهدف الا الى قتل رجل آخر !

وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف الا الى هدم فكرة أخرى!

ولو أطعنا كل ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع الأفكار ، ولما كان لنا بعــدها ما نعمله الا أن نجلس بين الأشلاء والأنقاض نندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس !

وانهالت علينا الشكاوى والعرائض بالألوف ومئات الألوف، ولو أن هذه الشكاوى والعرائض كانت تروى لنا حالات تستحق الانصاف ، أو مظالم يجب أن يعود اليها العدل،لكان الأمر منطقيا ومفهوما ، ولكن معظم ما كان يرد الينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون طلبات انتقام ... كأن الثورة قامت لتــكون سلاحا فى يد الحاقدين والمبغضين !

***

ولو أن أحدا سألنى فى تلك الأيام ، ما أعز أمانيك ؟ لقلت له على الفور :

ــ أن أسمع مصريا يقول كلمة انصاف فى حق مصرى آخرى.

وأن أحس أن مصريا قد فتح قلبــه للصفح والغفران والحب لاخوانه المصريين ...

وأن أرى مصريا لا يكرس وقته لتسفيه آراء مصرى آخر ...

وكانت هناك بعد ذلك كله أنانية فردية مستحكمة ...

كانت كلمة « أنا » على كل لسان ...

كانت هى الحل لكل مشكلة ، وهى الدواء لكل داء ...

وكثيرا ما كنت أقابل كبراء ــ أو هكذا تسميهم الصحف ــ من كل الاتجاهات والألوان،وكنت أسأل الواحد منهم عن مشكلة ألتمس عنده حلا لها ، فلم أكن أسمع الا « أنا » ...

مشاكل الاقتصاد « هو » وحده يفهمها ، أما الباقون جميعا فهم فى العلم بها أطفال يحبون .

ومشاكل السياسة «هو» وحده الخبير ، أما الباقون جميعــا فما زالوا فى « ألف باء » لم يتقدموا بعدها حرفا واحدا .

وكنت أقابل الواحد من هؤلاء ، ثم أعود الى زملائى فأقول لهم فى حسرة :

ـ لا فائدة ... هذا رجل لو سألناه عن مشكلة صيد السمك في جزائر هاواي لما وجدنا عنده جوابا الا كلمة « أنا » ..!

أذكر مرة كنت أزور فيها احدى الجامعات ... ودعوت أساتذتها وجلست معهم أحاول أن أسمع منهم خبرة العلماء .

وتكلم أمامي منهم كثيرون .. وتكلموا طويلا ...

ومن سوء الحظ أن أحدا منهم لم يقدم لي أفكارا ، وانما كل واحد منهم لم يزد على أن قدم لي نفسه ، وكفاياته الخلقية وحدها تعمل المعجزات ، ورمقني كل واحد منهم بنظره الذي يؤثرني على نفسه بكنوز الأرض وذخائر الخلود !

وأذكر أني لم أتمالك نفسي فقمت بعدها أقول لهم :

« ان كل فرد منا يستطيع في مكانه أن يصنع معجزة ، ان واجبه الأول أن يعطي كل جهده لعمله ، ولو أنكم ، كأساتذة جامعات ، فكرتم في طلبتكم ، وجعلتموهم ـ كما يجب ـ عملكم الأساسي ، لاستطعتم أن تعطونا قوة هائلة لبناء الوطن .

ان كل واحد يجب أن يبقى في مكانه ويبذل فيه كل جهده .

لا تنظروا الينا ، لقد اضطرتنا الظروف أن نخرج من أماكننا لنقوم بواجب مقدس ، ولقد كنا نتمنى لو لم تكن للوطن حاجة بنا الا في صفوف الجيش كجنود محترفين ، واذن لبقينا فيه » .

ولم أشأ ساعتها أن أضرب لهم المثل من أعضاء مجلس قيادة الثورة ولم أشأ أن أقول لهم انهم قبل أن يدعوهم الطارىء الذي

دعاهم الى الواجب الأكبر كانوا يبذلون فى عملهم كل جهدهم . ولم أشأ أن أقول لهم ان معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أساتذة في كلية أركان الحرب ، وهذا دليل امتيـــاز من ناحيتهم كجنود محترفين ...

وكذلك لم أشأ أن أقول لهم إن ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، هم عبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم ، وكمال الدين حسين ، رقوا ترقيات استثنائية فى ميدان القتال فى فلسطين .

لم أشأ أن أقول لهم شيئا من هذا ، لأنى لا أريد أن أفاخـر الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة وهم اخوتى وزملائى .

***

وأعترف أن هذا الحال كله سبب لى أزمة نفسية كئيبة .

ولكن التجارب فيما بعد ، وتأمل هذه التجارب واستخلاص معانيها الحقيقية ، خففت من وقع الأزمة فى نفسى،وجعلتنى ألتمس لهذا كله أعذارا من الواقع عثرت عليها حين اتضحت أمامى ــ الى حد ما ــ الصورة الكاملة لحالة الوطن ، وأكثر من هذا أعطتنى الجواب على السؤال الذى قلت انه طالما راودنى ، وهو :

« هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو ؟ » .

والجواب : نعم ، ولم يكن هناك مهرب أو مفر !

وأنا الآن أستطيع أن أقول اننا نعيش فى ثورتين وليس فى ثورة واحدة .

ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان :

ثورة سياسية يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد أقام فى أرضه دون رضاه .

وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد .

لقد سبقتنا على طريق التقدم البشرى شعوب مرت بالثورتين ولكنها لم تعشهما معا . وانما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين ، أما نحن فان التجربة الهائلة التى امتحن بها شعبنا هى أن تعيش الثورتان معا فى وقت واحد .

***

وهذه التجربة الهائلة مبعثها أن لكل من الثورتين ظروفا مختلفة تتنافر تنافرا عجيبا ، وتتصادم تصادما مروعا .

وان الثورة السياسية تتطلب لنجاحها وحدة جميع عناصر الأمة وترابطها وتساندها ونكرانها لذاتها فى سبيل الوطن كله .

الثورة الاجتماعية ، من أول مظاهرها ، تزلزل القيم وتخلخل العقائد ، تصارع المواطنين مع أنفسهم أفرادا وطبقات ، وتحكم الفساد والشك والكراهية .. والأنانية .

وبين شقى الرحى هذين ، قدر لنا أن نعيش اليوم فى ثورتين: ثورة تحتم علينا أن نتحد ، ونتحاب ، ونتفانى فى الهدف . وثورة تفرض علينا – برغم ارادتنا – أن نتفرق،وتسودنا البغضاء ، ولا يفكر كل منا الا فى نفسه .

وبين شقى الرحى هذين – مثلا – ضاعت ثورة ١٩١٩ ولم تستطع أن تحقق النتائج التى كان يجب أن تحققها .

الصفوف التى تراصت فى سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان ، لم تلبث الا قليلا حتى شغلها الصراع فيما بينها أفرادا وطبقات .

وكانت النتيجة فشلا كبيرا ، فقد زاد الطغيان بعدها تحكما فينا ، سواء بواسطة قوات الاحتلال السافرة،أو بصنائع الاحتلال المقنعة التى كان يتزعمها فى ذلك الوقت السلطان فؤاد وبعده ابنه فاروق ، ولم يحصد الشعب الا الشكوك فى نفسه والكراهية والبغضاء والأحقاد فيما بين أفراده وطبقاته .

وشحب الأمل الذى كان ينتظر أن تحققه ثورة ١٩١٩ .

***

ولقد قلت شحب الأمل ، ولم أقل تلاشى ، ذلك لأن قوى المقاومة الطبيعية التى تدفعها الآمال الكبيرة التى تراود شعبنا ، كانت لا تزال تعمل عملها وتستعد لمحاولة جديدة .

وكان ذلك هو الحال الذى ساد بعد ثورة سنة ١٩١٩ ،والذى فرض على الجيش أن يكون وحده القوة القادرة على العمل .

كان الموقف يتطلب أن تقوم قوة يقـرب ما بين أفرادها اطار واحد ، يبعد عنهم الى حد ما صراع الأفراد والطبقات ،وأن تكون هذه القوة من صميم الشعب ، وأن يكون فى استطاعة أفرادها أن يثق بعضهم ببعض ، وأن يكون فى يدهم من عناصر القوة المادية ما يكفل لهم عملا شريفا حاسما ، ولم تكن هذه الشروط تنطبق الا على الجيش .

وهكذا لم يكن الجيش ـ كما قلت ـ هو الذى حدد دوره فى الحوادث ، وانما العكس كان أقرب الى الصحة ، وكانت الحوادث وتطوراتها هى التى حددت للجيش دوره فى الصراع الكبير لتحرير الوطن .

***

ولقد أدركت منذ البداية أن نجاحنا يتوقف على ادراكنـا الكامل لطبيعة الظروف التى نعيش فيها من تاريخ وطننا ، فاننـا لم نكن نستطيع أن نغير هذه الظروف بجرة قلم ، وكذلك لم نكن نستطيع أن نؤخر عقارب الساعة أو نقدمها ونتحكم فى الزمن ... وكذلك لم يكن فى استطاعتنا أن نقوم على طريق التـاريخ بمهمة جندى المرور فنوقف مرور ثورة حتى تمر ثورة أخرى ، ونحول بذلك دون وقوع حادث اصطدام ، وانما كان الشىء الوحيد الذى نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الامكان وننجو من أن يطحننا شقا الرحى !

وكان لابد أن نسير فى طريق الثورتين معا .

ويوم سرنا فى طريق الثورة السياسية فخلعنا فاروقا عن عرشه، سرنا خطوة مماثلة فى طريق الثورة الاجتماعية فقررنا تحديد الملكية .

وما زلت حتى اليوم أعتقد أنه ينبغى أن تظل ثورة ٢٣ يوليو محتفظة بقدرتها على الحركة السريعة والمبادأة ، لكى تستطيع أن تحقق معجزة السير فى ثورتين فى وقت واحد ، مهما يبدو فى بعض الأحيان من التناقض فى تصرفاتنا .

وحين جاءنى واحد من أصدقائى يقول لى :

« أنت تطالب بالاتحاد لمواجهة الانجليز ، وأنت فى نفس الوقت تسمح لمحاكم الغدر أن تستمر فى عملها ... »

استمعت اليه ، وكانت فى خيالى أزمتنا الكبيرة ، أزمة شقى الرحى :

أزمة تقتضينا أن نتحد صفا واحدا وننسى الماضى .

وثورة تفرض علينا أن نعيد الهيبة الضائعة لقيم الأخلاق ولا ننسى الماضى !

ولم أقل لهذا الصديق : ان منفذنا الوحيد الى النجاة ، أن نحتفظ - كما قلت - بسرعة الحركة والمبادأة ، وبالقدرة على أن نسير فى طريقين فى وقت واحد .

ولم أشأ أنا ذلك ، ولا شاءه كل الذين شاركوا فى ٢٣ يوليو . ولكن القدر شاء ، وتاريخ شعبنا ، والمرحلة التى يمر بها اليوم .

الجزء الثانى

العمل الايجابى ـ الحماسة لا تكفى ـ الرصاص يتكلم ـ صراخ وعويل فى الليل ـ ما أسهل أن يراق الدم ـ جذور في التاريخ ـ يا عزيز يا عزيز ـ الفولاذ ينهار ـ سوف يتبلور هذا المجتمع ـ أعصاب الناس وعقولهم ـ أغضبنا الجميع ـ هذه حدودنا وذلك واجبنا .

ولكن ما الذى نريد أن نصنعه ؟

وما الطريق اليه ؟

الحق أنى فى معظم الأحيان كنت أعرف الاجابة على السؤال الأول . واخال أنى لم أكن وحدى المنفرد بهذه المعرفة ، وانما كانت تلك المعرفة أملا انعقد عليه اجماع جيلنا كله .

أما الاجابة عن السؤال الثانى « ما طريقنـــا الى هذا الذى نريد ؟ » فأنا أعترف أنها تغيرت فى خيالى كما لم يتغير شىء آخر، وأكاد أعتقد أيضا أنها موضوع الخلاف الأكبر فى هذا الجيل !

وما من شك فى أننا جميعا نحلم بمصر المتحررة القوية ..ذلك أمر ليس فيه خلاف بين مصرى ومصرى .

أما الطريق الى التحرر والقوة ..فتلك عقدة العقد فى حياتنا.

ولقد واجهت تلك العقدة قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وظللت أواجهها بعد ذلك كثيرا حتى اتضحت لى زوايا كثيرة كانت الظلال تسقط عليها فتخفيها،وبدت أمام بصيرتى آفاق كان الظلام الذى ساد وطننا قرونا طويلة يلفها فلا أراها !

***

ولقد أحسست منذ انبثق الوعى فى وجدانى ، أن العمـــل الايجابى وجب أن يكون طريقنا .. ولكن أى عمل !

ولقد تبدو كلمة « العمل الايجابى » على الورق كافية لتحل المشـــكلة . ولكنها فى الحياة ، وفى الظروف العسيرة التى عاشها جيلنا ، وفى المحن التى كانت تنشب أظفارها فى مقدرات وطننا ، لم تكن كافية .

وفى فترة من حياتى كانت الحماسة هى العمل الايجـابى فى تقديرى . ثم تغير مثلى الأعلى فى العمل الايجابى واصبحت أرى أنه لا يكفى أن تضج أعصابى وحدى بالحماسة ، وانمــا على أن أنقل حماستى كى تضج بها أعصاب الآخرين ...

وفى تلك الأيام قدت مظاهرات فى مدرسة النهضة ، وصرخت من أعماقى بطلب الاستقلال التام ، وصرخ ورائى كثيرون ..ولكن صراخنا ضاع هباء وبددته الرياح أصداء واهنة لا تحرك الجبال ولا تحطم الصخور .

ثم أصبح العمل الايجابى فى رأيى أن يجتمع كل زعماء مصر ليتحدوا على كلمة واحدة ، وطافت جموعنا الهاتفة الثائرة ببيوتهم واحدا واحدا تطلب اليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة ... ولكن اتحادهم على كلمة واحدة ، كان فجيعة لايمانى. فان الكلمة الواحدة التى اجتمعوا عليها كانت معاهدة سنة ١٩٣٦.

***

وجاءت الحرب العالمية الثانية . وما سبقها بقليل على شبابنا فألهبته وأشــاعت النار فى خلجاته ، فبدأ اتجاهنا ، اتجاه جيل بأكمله ، يسير الى العنف .

وأعترف ــ ولعل النائب العام لا يؤاخذنى بهذا الاعتراف ــ ان الاغتيالات السياسية توهجت فى خيالى المشتعل فى تلك الفترة على أنها العمل الايجابى الذى لا مفر من الاقدام عليه اذا كان يجب أن ننقذ مستقبل وطننا .

وفكرت فى اغتيال كثيرين وجدت أنهم العقبات التى تقف بين وطننا وبين مستقبله ، ورحت أفند جرائمهم ، وأضع نفسى موضع الحكم على أعمالهم ، وعلى الأضرار التى ألحقتها بهذا الوطن ، ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذى يجب أن يصدر عليهم .

وفكرت فى اغتيال الملك السابق وبعض رجاله الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا .

ولم أكن وحدى فى هذا التفكير .

ولما جلست مع غيرى انتقل بنا التفكير الى التدبير .

وما أكثر الخطط التى رسمتها فى تلك الأيام، وما أكثر الليالى التى سهرتها ، أعد العدة للأعمال الايجابية المنتظرة .

كانت حياتنا فى تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة .

كانت لنا أسرار هائلة ، وكانت لنا رموز ، وكنا نتستر بالظلام، وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل، وكانت طلقات الرصاص هى الأمل الذى نحلم به !

وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الاتجاه ، ومازلت أذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع فى الطريق الى نهايته .

والحق اننى لم أكن فى أعماقى مستريحا الى تصور العنف على أنه العمل الايجابى الذى يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا .

كانت فى نفسى حيرة ، تمتزج فيها عوامل متشابكة ،عوامل من الوطنية ومن الدين ، ومن الرحمة ومن القسوة ،ومن الايمان ومن الشك ، ومن العلم ومن الجهل ..

ورويدا رويدا وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التى توهجت فى خيالى ، تخبو جذوتها وتفقد قيمتها فى قلبى كتحقيق للعمل الايجابى المنتظر .

وأذكر ليلة حاسمة فى مجرى أفكارى وأحلامى فى هذا الاتجاه ، كنا قد أعددنا العدة للعمل .

واخترنا واحدا قلنا انه يجب أن يزول من الطريق .

ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ووضعنا الخطة بالتفاصيل.

وكانت الخطة أن نطلق الرصاص عليه وهو عائد الى بيته فى الليل .

ورتبنا فرقة الهجوم التى تتولى اطلاق النار ، ورتبنا فرقة الحراسة التى تحمى فرقة الهجوم،ورتبنا فرقة تنظيم خطة الافلات الى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح .

وجاءت الليلة الموعودة وخرجت بنفسى مع جماعات التنفيذ.

وسار كل شىء طبقا لما تصورناه .

كان المسرح خاليا كما توقعنا ، وكمنت الفرق فى أماكنها التى حددت لها ، وأقبل الواحدالذى كان يجب أن يزول،وانطلق نحوه الرصاص ...

وانسحبت فرقة التنفيذ ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة ، وبدأت عملية الافلات الى النجاة،وأدرت محرك سيارتى وانطلقت أغادر المسرح الذى شهد عملنا الايجابى الذى رتبناه .

وفجأة دوت فى سمعى أصوات صريخ وعويل ، وولولة امرأة ورعب طفل ، ثم استغاثة متصلة محمومة .

وكنت غارقا فى مجموعة من الانفعالات الثائرة ، والسيارة تندفع بى مسرعة .

ثم أدركت شيئا عجيبا .

كانت الأصوات مازالت تمزق سمعى .

الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة المحمومة .

لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسرى الصوت، ومع ذلك بدأ ذلك كله يلاحقنى ويطاردنى .

ووصلت الى بيتى ، واستلقيت على فراشى ، وفى عقلى حمى، وفى قلبى وضميرى غليان متصل .

وكانت أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة مازالت تطرق سمعى .

ولم أنم طول الليل ...

بقيت مستلقيا على فراشي فى الظلام ، أشعل سيجارة وراء سيجارة ، وأسرح مع الخواطر الثائرة ، ثم تتبدد كل خواطري على الأصوات التى تلاحقنى .

* آكنت على حق ؟

وأقول لنفسى فى يقين:

ـ دوافعى كانت من أجل وطنى !

* أكانت تلك الوسيلة التى لا مفر منها ؟

وأقول لنفسى فى شك :

ـ ماذا كان فى استطاعتنا أن نفعل ؟

* أيمكن حقا أن يتغير مستقبل بلدنا اذا خلصناه من هذا الواحد أو من غيره ، أم المسألة أعمق من هذا ؟

وأقول لنفسى فى حيرة :

ـ أكاد أحس أن المسألة أعمق ...

* أننا نحلم بمجد أمة ، فما هو الأهم : أيمضى من يجب أن يمضى ، أم يجيء من يجب أن يجيء ؟

وأقول لنفسى واشعاعات من النور تتسرب بين الخواطر المزدحمة .

ـ بل المهم أن يجيء من يجب أن يجيء ... أننا نحلم بمجد أمة .. ويجب أن يبنى هذا المجد !

وأقول لنفسي وما زلت أتقلب فى فراشي في الغرفة التى ملأها الدخان وتكاثفت فيها الانفعالات :

ـ واذن ؟

ـ اسمع هاتفا يرد على :

ـ واذن ماذا ؟

وأقول لنفسي فى يقين هذه المرة :

ـ اذن يجب أن يتغير طريقنا...ليس ذلك هو العمل الايجابى الذى يجب أن نتجه اليه ... المسألة أعمق جذورا وأكثر خطورة وأبعد أغوارا .

وأحس براحة نفسية صافية ، ولكن الصفاء ما يلبث أن تمزقه هو الآخر أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة ، تلك التى مازالت أصداؤها ترن فى أعماقي .

ووجدت نفسي أقول فجأة :

ـ ليته لا يموت !

وكان عجيبا أن يطلع على الفجر ، وأنا أتمنى الحياة للواحد الذى تمنيت له الموت فى المساء !

وهرعت فى لهفة الى احدى صحف الصباح ... وأسعدنى أن الرجل الذى دبرت اغتياله .. قد كتبت له النجاة .

ولكن تلك لم تكن المشكلة الأساسية .

وانما المشكلة الأساسية ... هى العثور على العمل الايجابى !

ومنذ ذلك الوقت بدأ تفكيرنا الحقيقى فى شىء أعمق جذورا وأكثر خطورة وأبعد أغوارا .

وبدأنا نرسم الخطوط الأولى فى الصورة التى تحققت مساء ٢٣ يوليو ، ثورة منبعثة من قلب الشعب ، حاملة لأمانيه ، مكملة لنفس الخطوات التى خطاها من قبل على طريق مستقبله .

ولقد بدأت هذا الحديث بسؤالين :

أولهما : ما الذى نريد أن نصنعه ؟

والثانى : وما طريقنا اليه ؟

وقلت ان الاجابة عن السؤال الأول أمل انعقد عليه الاجماع .

اما السؤال الثانى : ما طريقنا الى الذى نريد أن نصنعه ؟ فهو الذى أطلت فيه الكلام حتى وصلت الى ٢٣ يوليو !

ولكن أكان الذى حدث يوم ٢٣ يوليو هو كل ما نريد أن نصنعه ؟!

المؤكد ان الجواب بالنفى،فان تلك لم تكن الا الخطوة الأولى على الطريق .

والحق أن فرحة النجاح فى ٢٣ يوليو لم تخدعنى ، ولم تصور لى أن الآمال قد تحققت ، وأن الربيع قد جاء ... بل لعل العكس هو الصحيح ..

لقد كانت كل دقيقة تحمل الى انتصارا جديدا للثورة ،تحمل الى فى نفس الوقت عبئا ضخما ثقيلا تلقيه بلا مبالاة فوق كتفى

ولقد قلت فى الجزء الأول من هذا الحديث:«انى كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة ، وأنها لا تنتظر الا طليعة تقتحم أمامها السور فتندفع الأمة وراءها صفوفا متراصة منتظمة زاحفة » .

وقلت : اننى تصورت دورنا على أنه دور الطليعة ، وكنت أتصور أنه لن يستغرق أكثر من بضع دقائق يلحق بنا بعدها زحف الصفوف المنتظمة .

ورسمت أيضا فى ذلك الجزء صورة للخلافات والفوضى والأحقاد والشهوات التى انطلقت من عقالها فى تلك اللحظات ،كل منها يحاول بأنانيته أن يستغل الثورة لتحقيق أهداف بعينها .

ولقد قلت وسأظل أقول ان تلك كانت أقسى مفاجأة فى حياتى.

ولكن أشهد أنه كان يجب أن أتوقع أن يحدث الذى حدث .

لم يكن يمكن أن نضغط على زر كهربائى فتتحقق أحلامنا .

ولم يكن يمكن فى غمضة عين أن تزول رواسب قرون ومخلفات أجيال .

ولقد كان من السهل وقتها ــ ومازال سهلا حتى الآن أن نريق دماء عشرة أو عشرين أو ثلاثين ، فنضع الرعب والخوف فى كثير من النفوس المترددة ونرغمها على أن تبتلع شهواتها واحقادها وأهواءها .

ولكن أى نتيجة كان يمكن ان يؤدى اليها مثل هذا العمل ؟

ولقد كنت أرى أن الوسيلة لمواجهة مشكلة من المشاكل هو ردها الى أصلها ومحاولة تتبع الينبوع الذى بدأت منه .

وكان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر الى الظروف التاريخية التى مر بها شعبنا والتى تركت فى نفوسنا جميعا تلك الآثار وصنعت منا ما نحن عليه الآن ..

ولقد قلت مرة انى لا أريد أن أدعى لنفسى مقعد أستاذ التاريخ ، فذلك آخر ما يجرى اليه خيالى ، وقلت انى سأحاول محاولات تلميذ مبتدىء فى التاريخ .

لقد شاء لنا القدر أن نكون على مفرق الطرق من الدنيا .

وكثيرا ما كنا معبرا للغزاة ، ومطمعا للمغامرين ، ومرت بنا ظروف كثيرة يستحيل علينا أن نعلل العوامل الكامنة فى نفوس شعبنا الا اذا وضعناها موضع الاعتبار .

وفى رأيى أنه لا يمكن اغفال تاريخ مصر الفرعونى ، ثم تفاعل الروح اليونانى مع روحنا ، ثم غزو الرومان ، والفتح الاسلامى وموجات الهجرة العربية التى أعقبته .

وفى رأيى أيضا أنه يجب التوقف طويلا عند الظـروف التى مرت علينا فى العصور الوسطى ، فان تلك الظـروف هى التى وصلت بنا الى ما نحن عليه الآن .

واذا كانت الحروب الصليبية بداية فجر النهضة فى أوروبا ، فقد كانت بداية عهود الظلام على وطننا .

فلقد تحمل شعبنا وحده معظم أعباء الحروب الصليبية، وخرج بعدها فقيرا ، معدما ، منهوك القوى .

وفى نفس الوقت الذى هدته المعركة فيه ، شاءت له الظروف أن يعانى الذل تحت سنابك خيول الطغاة القادمين من المغـول والشركس ...

كانوا يجيئون الى مصر عبيدا فيفتكون بأمرائهم ويصبحون هم الأمراء .

وكانوا يساقون اليها مماليك فلا تمضى عليهم فترة فى البلد الطيب الوديع حتى يصبحوا ملوكا .

وأصبح الطغيان والظلم والخراب ، طابع الحكم فى مصر على عهدهم الذى عاشت مصر فى مجاهله قرونا طويلة .

فى تلك الفترة تحول وطننا الى غاية تحكمها وحوش ضارية. كان المماليك يعتبرونها غنيمة سائغة ، وكان الصراع الرهيب بينهم هو على نصيب كل منهم فى الغنيمة .

وكانت أرواحنا ، وثرواتنا ، وأراضينا ، هى الغنيمة .

وأحيانا حينما أعود الى تقليب صفحات من تاريخنا ، أحس بالأسى يمزق نفسى اذاء تلك الفترة التى تكون فيها اقطاع طاغ لم يجعل له من عمل الا مص دماء الحياة من عروقنا ، وأكثر من هذا سحب بقايا الاحساس بالقوة والكرامة من هذه العروق، وترك فى أعماق نفوسنا تأثيرا يتعين علينا أن نكافح طويلا لكى تتغلب عليه ...

والواقع أن تصورى لهذا التأثير يعطينى فى كثير من الأحيان تفسيرا لبعض المظاهر فى حياتنا السياسية .

أحيانا مثلا يخيل الى أن كثيرين يقفون من الثورة موقف المتفرج الذى لا يعنيه من الأمر الا مجرد انتظار نتيجة معركة يتصارع فيها طرفان لا تربطه بأيهما علاقة .

وأحيانا أثور على هذا الوضع ، وأحيانا أقول لنفسى ولبعض من زملائى :

لماذا لا يقدمون ؟ ولماذا لا يخرجون من المكامن التى وضعوا فيها أنفسهم ، ليتكلموا ويتحركوا ؟

ولا أجد تفسيرا لهذا الا رواسب حكم المماليك .

كان الأمراء يتصارعون ، ويتطاحن فرسانهم فى الشـوارع ، ويهرع الناس الى بيوتهم يغلقونها عليهم بعيدين عن هذا الصراع الذى لا دخل لهم فيه .

وأحيانا يخيل الى أننا نلجأ الى خيالنا نكلفه أن يحقق لنا فى اطار الوهم ما نريده ، ونستمتع نحن بهذا الوهم ونعقد به عن محاولة تحقيقه .

ولم يتخلص كثيرون منا من هذا الشعور بعد ، ولم يهضموا أن البلد بلدهم وأنهم سادته وأصحاب الأمر فيه .

ولقد ظللت مرة أحاول أن أفهم عبارة كثيرا ما هتفت بها طفلا صغيرا حينما كنت أرى الطائرات فى السماء .

لقد كنت أصيح :

« ياربنا ياعزيز .. داهية تاخد الانجليز » .

ولقد اكتشفت فيما بعد أننا ورثنا هذه العبارة عن أجدادنا على عهد المماليك ، ولم تكن يومها منصبة على الانجليز، وانما حورناها نحن أو حورتها الرواسب الكامنة فينا والتى لم تتغير وان تغـير اسم الظالم ، فقد كان أجدادنا يقولون :

« يارب يا متجلى ... اهلك العثمللى ! »

وبنفس الروح التى لم يتغير جرى المعنى على لساننا وان تغير اسم « الانجليز » باسم العثمانيين طبقا للتغيرات السياسية التى توالت على مصر بين العهدين !

ثم ماذا حدث لنا بعد عهد المماليك ؟

جاءت الحملة الفرنسية ، وتحطم الستار الحديدى الذى فرضه المغول علينا : وتدفقت علينا أفكار جديدة ، وتفتحت لنا آفاق لم يكن لنا بها عهد .

وورثت أسرة محمد على كل ظروف المماليك ، وان حاولت أن تضع عليها من الملابس ما يناسب زى القرن التاسع عشر .

وبدأ اتصالنا بأوروبا والعالم كله من جديد .

بدأت اليقظة الحديثة !

وبدأت اليقظة بأزمة جديدة .

لقد كنا — فى رأيى — أشبه بمريض قضى زمنا فى غرفة مغلقة ، واشتدت الحرارة داخل الغرفة المغلقة حتى كادت أنفاس المريض تختنق ...

وفجأة هبت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب ، وتدافعت تيارات الهواء الباردة تلسع جسد المريض الذى ما زال يتصبب عرقا .

لقد كان فى حاجة الى نسمة هواء .. فانطلق عليه اعصار عات وانشبت الحمى أظافرها فى الجسد المنهوك القوى .

هذا ما حدث لمجتمعنا تماما ، وكانت تجربة محفوفة بالمخاطر !

كان المجتمع الأوروبى قد سار فى تطوره بنظـام ، واجتـاز الجسر بين عصر النهضة من أعقاب القرون الوسـطى الى القرن التاسع عشر خطوة خطوة ، وتلاحقت مراحل التطور واحدة اثر أخرى .

أما نحن فقد كان كل شىء مفاجئا لنا .

كنا نعيش داخل ستار من الفولاذ فانهار فجأة .

كنا قد انقطعنا عن العالم واعتزلنا أحواله ،خصوصا بعدتحول التجارة مع الشرق الى طريق رأس الرجاء الصـالح ، فاذا نحن نصبح مطمع دول أوروبا ومعبـرا الى مسـتعمراتها فى الشرق والجنوب .

وانطلقت علينا تيارات من الأفكاروالآراء لم تكن المرحلة التى وصلنا اليها فى تطورنا تؤهلنا لقبولها .

كانت أرواحنا ما زالت تعيش فى آثار القرن الثالث عشر،وان سرت فى نواحيها المختلفة مظاهر القرن التاسع عشر ثم القـرن العشرين .

وكانت عقولنا، تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقـدمة التى تخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد ، وكان الشوط ماضيا والسباق مروعا مخيفا .



وما من شك فى أن هذا الحال هو المسئول عن عدم وجود رأى عام قوى متحد فى بلادنا ، فان الفارق بين الفرد والفرد كبير ، والفارق بين الجيل والجيل شاسع .

ولقد جاء على وقت كنت أشكو فيه من أن الناس لا يعرفون ماذا يريدون ، وأن اجماعهم لا ينعقد على طريق واحد يسيرون فيه ، ثم أدركت بعدها أننى أطلب المستحيل ، وأننى أسقط من حسابى ظروف مجتمعنا ..

اننا نعيش فى مجتمع لم يتبلور بعد ، ومازال يفوز ويتحرك ولم يهدأ حتى الآن أو يتخذ وضعه المستقر ويواصل تطوره التدريجى بعد مع باقى الشعوب التى سبقتنا على الطريق .

وأنا أعتقد ، دون أن أكون فى ذلك متملقا لعواطف الناس ، أن شعبنا صنع معجزة ، ولقد كان يمكن أن يضيع أى مجتمع تعرض لهذه الظروف التى تعرض لها مجتمعنا ، وكان يمكن أن تجرفه هذه التيارات التى تدفقت علينا .. ولكننا صمدنا للزلزال العنيف .

صحيح أننا كدنا نفقد توازننا فى بعض الظروف ، ولكنا بصفة عامة ، لم نقع على الأرض .

وأنا أنظر أحيانا الى أسرة مصرية عادية من آلاف الأسر التى تعيش فى العاصمة .

الأب مثلا فلاح معمم من صميم الريف .

والأم سيدة منحدرة من أصل تركى .

وأبناء الاسرة فى مدارس على النظام الانجليزى .

وفتياتها فى مدارس على النظام الفرنسى .

كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين. أنظر الى هذا وأحس فى أعماقى بفهم للحيرة التى نقاسيها وللتخبط الذى يفترسنا ، ثم أقول لنفسى :

ــ سوف يتبلور هذا المجتمع ، وسوف يتماسك ، وسوف يكون وحدة قوية متجانسة ، انما ينبغى أن نشد أعصابنا وتتحمل فترة الانتقال .

تلك اذن هى الأصول التى انحدرت منها أحوالنا اليوم،وهذه هى الينابيع التى تجرى منها أزمتنا ، فاذا أضفت الى هذه الجذور الاجتماعية ، ظروفا من أجلها طردنا « فاروق » ، ومن أجلها نريد تحرير بلادنا من أى جندى غريب ــ اذا أضفت هذا كله ،لخرجنا الى الأفق الواسع الذى نعمل فيه ، والذى تهب عليه الرياح من كل ناحية . وتزمجر فى جنباته العواصف الهوج ، وتتوهج فيه البروق وتهدر الرعود ، والذى قلت أنه من الظلم أن يفرض فيه علينا حكم الدم ، مع مراعاة كل هذه الظروف والملابسات .

واذن ما هو الطريق ؟

وما هو دورنا على هذا الطريق ؟

أما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية .

وأما دورنا فيه فدور الحراس فقط ، لا يزيد ولا ينقص ... الحراس لمدة معينة بالذات موقوتة بأجل .

وما أشبه شعبنا الآن بقافلة كان يجب أن تلزم طريقا معينا ، وطال عليها الطريق ، وقابلتها المصاعب ، وانبرى لها اللصوص وقطاع الطرق ، وضللها السراب ، فتبعثرت القافلة . كل جماعة منها شردت في ناحية ، وكل فرد مضى في اتجاه .

وما أشبه مهمتنا في هذا الوضع بدور الذى يمضى فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ثم يتركهم يواصلون السير .

هذا هو دورنا ولا أتصور لنا دورا سواه .

ولو خطر لى أننا نستطيع أن نحل كل مشاكل وطننا لكنت واهما ، وأنا لا أحب أن أتعلق بالأوهام .

اننا لا نملك القدرة على ذلك ، ولا نملك الخبرة لنقوم به .

انما كل عملنا أن نحدد معالم الطريق كما قلت ، وأن نجرى وراء الشاردين فنردهم الى حيث ينبغى أن يبدأوا المسير ، وأن نلحق بالسائرين وراء السراب فنقنعهم بعبث الوهم الذى يجرون وراءه .

ولقد كنت مدركا منذ البداية أنها لن تكون مهمة سهلة ، وكنت أعلم مقدما أنها ستكلفنا الكثير من شعبيتنا .

لقد كان يجب أن تتكلم بصراحة ، وان نخاطب عقول الناس ، وكان الذين سبقونا قد تعودوا أن يعطوا الوهم ، وأن يقولوا للناس ما يريد الناس أن يسمعوه !

وما أسهل الحديث الى غرائز الناس ، وما أصعب الحديث الى عقولهم !

وغرائزنا جميعا واحدة ، أما عقولنا فموضع الخلاف والتفاوت ، وكان ساسة مصر فى الماضى من الذكاء بحيث أدركوا هذه الحقيقة فاتجهوا الى الغريزة يخاطبونها . أما العقل فتركوه هائما على وجهه فى الصحراء .

وكنا نستطيع أن نفعل نفس الشيء .

كنا نستطيع أن نملأ أعصاب الناس بالكلمات الكبيرة التى لا تخرج عن حد الوهم والخيال . أو تدفعهم وراء أعمال غير منظمة لم تعد لها العدة أو تتخذ لها أهبة ، أو كنا نستطيع أن نترك أصواتهم تبح من كثرة هتافهم :

« يا ربنا يا عزيز ... داهية تاخد الانجليز » .

تماما كما كان أجدادنا تبح أصواتهم أيام المماليك من كثرة هتافهم :

« يارب يا متجلى ... اهلك العثمللى » .

وبعدها لا شيء !

لكن أكانت تلك مهمتنا التى شاءها لنا القدر ؟

وما الذى كنا نستطيع أن نحققه فعلا اذا سرنا فى هذا السبيل؟

ولقد قلت فى الجزء الأول من هذا الحديث أن نجاح الثورة يتوقف على ادراكها لحقيقة الظروف التى تواجهها ، وقدرتها على الحركة السريعة . وأضيف الآن الى ذلك أنها يجب أن تتحرر من آثار الألفاظ البراقة ، وأن تقدم على ما تتصور أنه واجبها مهما كان الثمن شعبيتها ومن الهتاف بحياتها والتصفيق لها !

والا فاننا نكون قد تخلينا عن أمانة الثورة وعن واجباتها .

***

وكثيرا ما يجيئنى من يقول لى :

ـ لقد أغضبتم كل الناس .

وعلى مثل هذه الملاحظة أرد دائما :

ـ ليس غضب الناس هو العامل المؤثر فى الموقف ، وانما السؤال هل كان الذى أغضبهم يعمل لصالح الوطن أو لغيره ؟

أنا أدرك أننا أغضبنا كبار الملاك .

لكن ، هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك تربة وطننا وفينا من يملك منها عشرات الألوف من الأفدنة وفينا من لا يملك قطعة يدفن فيها بعد أن يموت ؟

وأنا أدرك أننا أغضبنا الساسة القدماء !

ولكن هل كان يمكن أن نغضبهم ونترك وطننا فريسة لشهواتهم وفسادهم وصراعهم على مغانم الحكم ؟

وأنا أدرك أننا أغضبنا عددا كبيرا من الموظفين .

ولكن هل كان يمكن أن نعطى أكثر من نصف ميزانيةالدولة مرتبات للموظفين ولا نستطيع ـ كما صنعنا بالفعل ـ أن نخصص أربعين مليونا من الجنيهات للمشروعات الانتاجية ؟

ماذا علينا لو كنا فتحنا ـ كما فعل غيرنا ـ خزائن الدولة ووزعنا ما فيها على الموظفين وليكن بعد ذلك الطوفان ، وليكن ـ أيضا ـ أن يجىء العام القادم فلا تستطيع الحكومة أن تدفع مرتبات موظفيها أصلا وأساسا .

وما كان أسهل أن نرضى هؤلاء جميعا وغيرهم .. ولكن ما الثمن الذى كان وطننا سيدفعه من آماله ومستقبله فى مقابل هذا الرضا ؟..

***

ذلك دورنا الذى حدده لنا تاريخ وطننا ، ولا مفر أمامنا من أن نقوم به ، مهما كان الثمن الذى ندفعه .

ولم نخطىء أبدا فى فهم هذا الدور ، ولا فى ادراك طبيعة الواجبات التى يلقيها علينا .

تلك خطوات لاصلاح آثار الماضى ورواسبه مضينا فيها وتحملنا من أجلها كل شيء .

فلما جاء الكلام عن المستقبل قلنا اننا لا نملك هذا وحدنا .

***

فمن أجل ضمان الحياة السياسية فى المستقبل ذهبنا الى عدد من قادة الرأى من مختلف الطبقات والعقائد وقلنا لهم .

ـ ضعوا للبلد دستورا يصون مقدساته .

وكانت لجنة وضع الدستور .

ومن أجل ضمان الحياة الاقتصادية فى المستقبل ذهبنا الى أكبر الأساتذة فى مختلف نواحى الخبرة وقلنا لهم :

نظموا للبلد رخاءه واضمنوا لقمة العيش لكل فرد فيه .

وكان مجلس الانتاج .

تلك حدودنا لم تتعدها :

ازالة الصخور والعقبات من الطريق ، مهما يكن الثمن .

والعمل للمستقبل من كل نواحيه مفتوح لكل ذوى الرأى والخبرة ، فرض لازم عليهم وليس لنا أن نستأثر به دونهم ، بل ان مهمتنا تقتضى أن نسعى لجمعهم من أجل مستقبل مصر .. مصر القوية المتحررة !

الجزء الثالث

بعد غيبة ثلاثة شهور ـ الزمان والمكان ـ القدر لا يهـزل ـ دوائر ثلاث ـ دور يبحث عن بطلة ـ فلسطين ليست بلدا غريبا ـ لقاء مع عرب فلسطين ـ أغلى أسرار الطيران ـ أفكار فى ميدان القتال ـ الأرض والنجوم ـ نظرة الى مذكرات وايزمان ـ الكفاح الواحد وعناصره ـ القوة بالأرقام ـ مسئولياتنا فى أفريقيـا ـ الحكمة الحقيقية من الحج .

مرة ثالثة أعود الى فلسفة الثورة .

أعود اليها بعد غيبة طويلة امتدت الى أكثر من ثلاثة شـــهور حافلة بالأحداث والتطورات السريعة المتلاحقة .

ثلاثة شهور حاولت خلالها أكثر من مرة أن أجد الساعات التى أسجل فيها هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ، فعصفت رياح الأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة بهذه المحاولات وبعثرتها فى الفضاء .

ولكن الرياح التى عصفت بمحاولات التســجيل لم تعصف بالخواطر نفسها ، وصحيح أن هذه الخواطر لم تجر على ورق ، ولكنها ظلت تدور فى تفكيرى وتتفــاعل مع غيرها وتبحث عن تفاصيل أخرى ، سواء فى ذاكرتى أو فى الأيام ، تضيفها اليهــا لتكمل بها صورة صحيحة واضحة .

ولكن ما الصورة الصحيحة الواضحة التى أريد أن أرسمها هذه المرة ؟ وما علاقتها بالمحاولات التى قمت بها قبل ذلك ، فى الجزء الأول ثم فى الجزء الثانى من هذه الخواطر عن فلســفة الثورة ؟

لقد تحدثت فى الجزء الأول عن بداية الثــورة فى نفوســنا كأفراد ، وفى نفوسنا كنماذج عادية من شباب جيلنا ، وعن الثورة فى تاريخ أمتنا ، وعن يوم ٢٣ يوليو فى هذه الثورة .

وفى الجزء الثانى تحدثت عن محاولات على طريق الثورة ، وكيف حدد لنا تاريخ شعبنا هذه الطريق ، سواء فى نظرتنا المليئة بالعبر الى الماضى أو فى تطلعنا المفعم بالأمل الى المستقبل .

واذن فقد كان حديثى فى الجزأين السابقين عن الزمان ، ومن هنا أشعر بأن المكان يطالب بحقه ، واذن فليكن الحديث فى هذه المرة عنه .

وليس هدفى أن أدخل فى بحث فلسفى معقد عن الزمان والمكان . وانما الذى لا شك فيه هو أن العالم كله ، لا وطننا فحسب ، هو نتيجة لتفاعل الزمان والمكان .

واذا كنت أقول اننا فى تصويرنا لأحوال وطننا لا نستطيع أن ننسى عنصر الزمان ، فاننا أيضا وبنسبة متساوية لا نستطيع أن ننسى عنصر المكان .

وبعبارة أبسيط :

نحن الآن لا نستطيع أن نعود الى القرن العاشر ، نرتدى ملابسه التى تبدو لعيوننا غريبة مضحكة ، ونتوه فى أفكاره التى تظهر أمامنا اليوم أطباقا من الظلام خلت من كل شعاع .

وكذلك نحن الآن لا نستطيع أن نتصرف على أننا قطعة من ألاسكا المتعلقة بأقصى أصقاع الشمال ، أو على أننا جزيرة « ويك » النائية المهجورة فى تيه الباسفيك .

الزمان اذن يفرض علينا تطوره .

والمكان أيضا يفرض علينا حقيقته .

ولقد حاولت مرتين أن أمضى مع الزمان ، فلأحاول هـذه المرة أن أتجول فى عالم المكان .

***

وثمة شىء يجب أن نتفق عليه أولا وقبل أن نمضى فى هذا الحديث ذلك هو تعريف حدود المكان بالنسبة لنا .

ان قال لى أحد أن المكان بالنسبة لنا هو هذه العاصمة التى نعيش فيها فانى أختلف معه . وان قال لى أحد أن المكان بالنسبة لنا هو حدود بلادنا السياسية فانى أيضا أختلف معه .

ولو كان الأمر كله محصورا فى حدود عاصمتنا . أو فى حدود بلادنا السياسة لهان الأمر ، ولأقفلنا على أنفسـنا كل الابواب وعشنا فى برج عاجى نحاول أن نبتعد به بقدر ما نسـتطيع عن العالم ومشاكله وحروبه وأزماته تلك التى تقتحم علينـا أبواب بلادنا وتؤثر فينا دون أن يكون لنا فيها دخل أو نصيب .

ولقد مضى عهد العزلة .

وذهبت الأيام التى كانت فيها خطوط الأسلاك الشائكة التى تخطط حدود الدول تفصل وتعزل .

ولم يعد مفــر أمام كل بلد من أن يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ليعلم من أين تجيئه التيارات التى تؤثر فيه ، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره وكيف .. وكيف ..

ولم يعد مفر أمام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها فى المكان ، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه وما هو مجالها الحيوى وميدان نشاطها ودورها الايجابى فى هذا العالم المضطرب .

وأنا أجلس أحيانا فى غرفة مكتبى وأسرح بخواطرى فى نفس هذا الموضوع أسائل نفسى :

ـــ ما هو دورنا الايجابى فى هذا العالم المضطرب ، وأين هو المكان الذى يجب أن نقوم فيه بهذا الدور ؟

وأستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر لنا من أن يدور عليها نشاطنا وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا .

ان القدر لا يهزل ، ليست هناك أحداث من صنع الصدفة ، ولا وجود يصنعه الهباء .

ولن نستطيع أن ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان .

أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها . حقيقة وفعلا لا مجرد كلام ؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة افريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها ، وشاء أيضا أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سـواء أردنا أو لم نرد ؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالما اسلاميا تجمعنا واياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب ، وانما تشدها حقائق التاريخ؟.

وكما قلت مرة : ان القدر لا يهزل .

فليس عبثا أن بلدنا فى جنوب غرب آسـيا يلاصـق الدول العربية وتشتبك حياته بحياتها .

وليس عبثا أن بلدنا يقع فى شمال شرق أفريقيا ، ويطل من على القارة السوداء التى يدور فيهـا اليـوم أعنف صراع بين مستعمريها البيض وأهلها السود من أجل مواردها التى لا تحد .

وليس عبثا أن الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامى ـ الذى أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الاسلام القديمـة ـ تراجع الى مصر وآوى اليها فحمته مصر وانقذته عندما ردت غزو المغول على أعقابه فى عين جالوت.

كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة فى حياتنا،لانستطيع مهما نحاول ان ننساها أو نفر منها .

***

ولست أدرى لماذا أذكر دائما عندما أصل الى هذه المرحلة من أفكارى وأنا جالس وحدى فى غرفتى شاردا مع الأفكار ، قصة مشهورة للشاعر الايطالى الكبير « لويدجى بيراندلو » أسماها : ست شخصيات تبحث عن ممثلين !

ان ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه .

ان ظروف التاريخ أيضا مليئة بأدوار البطولة المجيدة التى لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست أدرى لماذا يخيل الى دائما أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دورا هائما على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به ، ثم لست أدرى لماذا يخيل الى أن هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعبا منهوك القوى على حدود بلادنا يشير الينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ونرتدى ملابسه فان أحدا غيرنا لايستطيع القيام به .

وأبادر هنا فأقول أن الدور ليس دور زعامة .

انما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ، يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور ايجابى فى بناء مستقبل البشر .

***

وما من شك فى أن الدائرة العربية هى أهم هـذه الدوائـر وأوثقها ارتباطا بنا .

فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن ،وعشنا نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك .

وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضا بالدين ، فنقلت مراكـز الاشعاع الدينى ، فى حدود عواصمها ، من مكة ، الى الكوفة ، ثم الى القاهرة ، ثم جمعها الجوار فى اطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية .

وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسى أن طلائع الوعى العربى بدأت تتسلل الى تفكيرى وأنا طالب فى المدرسـة الثانوية اخرج مـع زملائى فى اضراب عام فى الثانى من شهر ديسمبر من كل سـنة احتجاجا على وعد بلفور الذى منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطنا قوميا فى فلسطين ، اغتصبه ظلما من أصحابه الشرعيين .

وحين كنت أسائل نفسى فى ذلك الوقت : لماذا أخـرج فى حماسة ، ولماذا أغضب لهذه الأرض التى لم أرها ؟ لم أكن أجـد فى نفسى سوى أصداء العاطفة .

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيرى حول هذا الموضوع لما أصبحت طالبا فى الكلية الحربية أدرس تاريخ حملات فلسـطين بصفة خاصة ، وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقـة وظـروفها التى

جعلت منها في القرن الأخير فريسة سهلة تتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة !

ثم بدأ الفهم يتضح وتتكشف الأعمدة التى تتركز عليها حقائقه لما بدأت أدرس وأنا طالب فى كلية أركان الحرب حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل .

ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعا فى أعماقى بأن القتال فى فلسطين ليس قتالا فى أرض غريبة . وهو ليس انسياقا وراء عاطفة ، وانما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس !.

***

وأذكر يوما عقب صدور قرار تقسيم فلسطين فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعا واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة فى فلسطين . وذهبت فى اليوم التالى أطرق باب بيت الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين ، وكان لايزال يعيش فى الزيتون ، وأقول له :

ـ انكم فى حاجة الى ضباط يقودون المعارك ويدربون المتطوعين وفى الجيش المصرى عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع ، وهم تحت أمرك فى أى وقت تشاء !

وقال لى الحاج أمين الحسينى أنه سعيد بهذه الروح ، ولكنه يرى أن يستأذن الحكومة المصرية قبل أن يقول شيئا .

ثم قال لى الحاج أمين :

سوف أعطيك ردى بعد استئذان الحكومة .

وعدت اليه بعد أيام ، وكان رده ، الرد الذى حصل عليه من الحكومة ، هو الرفض !

ولم نسكت ..

وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العـزيز تدك المسـتعمرات اليهودية جنوبى القدس ، وكان قائد المدفعية هو كمـال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التى تحـولت الى مجلس قيادة الثورة .

أذكر سرا آخر كان ذات يوم أغلى أسرار الضباط الأحرار :

كان حسن ابراهيم قد سافر الى دمشق ، واتصل ببعض ضباط فوزى القاوقجى . وكان القاوقجى يقود قوات التحرير العـربية ويستعد لمعـركة حاسـمة فاصـلة فى المنطقـة الشمالية من فلسـطين .

ووضع حسن ابراهيم وعبد اللطيف بغدادى خطـة جريئـة للقيام بعمل حاسم فى المعركة التى تستعد لها قوات التحرير .

وكانت الخطوط البارزة فى تلك الخطة هى قوات التحـرير العربية لاتملك طيرانا يساعدها فى المعركة ويرجح النصر الى كفتها، ولو أنها حصلت على معونة من الجو بضرب مركز فـوق ميدان

العملية ، لكان ذلك عاملا فاصلا ، ولكن من أين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم ؟

ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، وكان جو الرقابة على القوات المسلحة ـ بما فيها سلاح الطيران ـ حذرا متيقظا !

ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ منها الى تفاصيل الخطة .

وبدأت فى مطار سلاح الطيران حركة عجيبة ، وبرز فيها نشاط واسع لاصلاح طائرات واعدادها ، وجهود واضحة فى التدريب سرت كالحمى فى نفوس عدد من الطيارين ..

ولم يكن هناك الا قلائل يعرفون السر ..

يعرفون أن الطائرات وقوادها قد أعدوا ليوم تجىء فيه من سوريا اشارة سرية ، فينطلقون بعدها الى الجو ليشتركوا بكل قوتهم فى معركة حاسمة على الأرض المقدسة . ثم يتجهون بعد ذلك الى مطار قرب دمشق ، ينزلون فيه ويترقبون الأحوال فى مصر ، ويتعرفون صدى هذه الحركة التى أقدموا عليها ، ثم يقررون كيف يتصرفون بعدها !

وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك فى هذه العملية وأذكر أن كثيرين كانوا قد رتبوا أمورهم على أن الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة الى الوطن قبل سنوات قد تطول وتمتد ..

وكان شعورنا فى اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار . والمؤكد أن نفس الشعور كان يراود خواطر كل الطيـارين المشتركين فى السر الكبير ، ان هذه المخاطرة الجريئة لم تكن حبا فى المغامرة ، ولا كانت رد فعل للعاطفة فى نفوسنا ، انما كانت وعيـا ظـاهرا لايماننا بأن رفح ليست آخر حدود بلادنا ، وأن نطاق سـلامتنا يقضى علينا أن ندافع عن حدود اخواننا الذين شاءت لنا أحـكام القدر أن نعيش معهم فى منطقة واحدة .

***

ولم تتم الخطة يومها .. لأننا لم نتـلق الاشـارة السرية من سوريا .

وقضت الظروف بعدها أن تدخل الجيوش العربية كلهاالحرب فى فلسطين .

ولست أريد أن أدخل فى تفاصيل حرب فلسطين ــ الآن ــ فذلك بحث تتشعب فيه الأحاديث ، وانما يعنينى منحرب فلسطين درس عجيب .

لقد دخلتها شعوب العرب جميعا بدرجة واحدة من الحماسة، واذن فهذه الشعوب جميعا تتشارك فى شعورها وفى تقـديرها لحدود سلامتها .

ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة ، واذن فهى جميعا ، كل منها فى بلاده ،قدتعرض لنفس العوامل وحكمتها

نفس القـــوى التى ســاقتها الى الهزيمة ونكست رأســها بالذل والعـــار .

ولقد خلوت الى نفسى مرات كثيرة فى خنادق عــراق المنشية وفى جحورها .

وكنت يومها أركان حرب الكتيبة السادسة التى كانت تقف فى ذلك القطاع وتدافع عنه أحيانا وتهاجم فى أكثر الأحيان .

وكنت أخرج الى الأطلال المحطمة من حولى بفعل نيران العدو ثم أسبح بعيدا مع الخيال .

وأحيانا كانت الرحلة مع الخيال تمضى بى بعيدا الى آفــاق النجوم ، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة بأكملها .

وكانت الصورة تبدو فى ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتى .

هذا هو المكان الذى نقبع محاصرين فيه ، هذه مواقع كتيبتنا وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط .

وهذه قوات العدو تحيط بنا .

وهذه قوات أخرى لنا .. هى أيضــا محــاصرة لاتستطيع الحركة الواسعة وأن بقى لها مجال للمناورة المحدودة .

ان الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التى تتلقى منهـــا الأوامر تحيطها بحصار وتلحق بها عجزا أكثر من الذى تصنعه بنا نحن القابعين فى منطقة الفالوجة .

ثم هذه قوات اخواننا فى السلاح وفى الوطن الكبير وفى المصلحة المشتركة وفى الدافع الذى جعلنا نهرول الى أرض فلسطين .

هذه هى جيوش اخواننا .. جيشا جيشا .. كلها هى أيضا محاصرة بفعل الظروف التى كانت تحيط بها والتى كانت تحيط بحكومتها .. لقد كانت جميعا تبدو كقطع شطرنج لاقوة لها ولا ارادة الا بقدر ماتحركها أيدى اللاعبين .

وكانت شعوبنا جميعا تبدو فى مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة أخفت عنها عمدا ما يجرى ، وضللتها حتى عن وجودها نفسه .

وأحيانا كنت أهبط من ارتفاع النجوم الى سطح الأرض ، فأحس أننى أدافع عن بيتى وعن أولادى ، ولاتعنينى أحلامى الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ .

وكان ذلك عندما ألتقى فى تجوالى فوق الأطلال المحطمة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا فى براثن الحصار بعد أن خربت بيوتهم وضاع كل مايملكون ، وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت فى مثل عمر ابنتى ، وكنت أراها وقد خرجت الى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خرقة قماش .

وكنت دائما أقول لنفسى :

ـ قد يحدث هذا لابنتى !

وكنت مؤمنا أن الذى يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث ــ وما زال احتمال حدوثه قائما ــ لأى بلد فى هذه المنطقة ما دام مستسلما للعوامل والعناصر والقوى التى تحكمه الآن .

***

ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك فى فلسطين وعـــدت الى الوطن ، وكانت المنطقة كلها فى تصورى قد أصبحت كلا واحدا.

وأيدت الحوادث التى جرت بعد ذلك هــذا الاعتقــاد فى نفسى .

كنت أتابع تطورات الموقف فيها فأجد أصداء يتجاوب بعضها مع بعض .

كان الحادث يقع فى القاهرة فيقع مثيل له فى دمشق غدا ،وفى بيروت وفى عمان ، وفى بغداد ، وغيرها .

وكان ذلك كله طبيعيا مع الصورة التى رسمتها التجارب فى نفسى .

منطقة واحدة ، ونفس الظروف ، ونفس العوامل .. بل نفس القوى المتألبة عليها جميعا .

وكان واضحا أن الاستعمار هو أبرز هذه القوى .

حتى اسرائيل نفسها ، لم تكن الا أثرا من آثار الاستعمار .

فلولا أن فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطانى لما استطاعت الصهيونية أن تجد العون على تحقيق فكرة الوطن القـــومى ف فلســطين . ولظلت هذه الفكرة خيالا مجنونا ليس له أى أمــل فى واقع .

وأنا أكتب هذه الخواطر وأمامى مذكرات حاييم وايزمــان رئيس جمهورية اسرائيل ومنشئها الحقيقى ، وهى المذكرات التى نشرها فى كتابه المشهور « التجربة والخطأ » وثمة عبارات معينة ذات طابع خاص تستوقفنى فيه .

يستوقفنى قول وايزمان :

«لقد كان يجب أن تساعدنا دولة كبرى ، وكانت فى العــالم دولتان تستطيع كل منهما مساعدتنا ألمانيا وبريطانيا .

أما ألمانيا فقد آثرت أن تبتعد عن كل تدخل .

وأما بريطانيا فقد أحاطتنا بالرعاية والعطف » .

ويستوقفنى بعد ذلك قول وايزمان :

ولقد حدث فى المؤتمر الصهيونى السادس الذى عقدناه فى سويسرا أن وقف هرتزل يعلن يهود الدنيا أن بريطانيا العظمى ، وبريطانيا العظمى وحدها دون كل دول الأرض ، قــد اعتــرفت باليهود كأمة ذات كيان مستقل ، منفصلة عن غيرها .

واننا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن ، وبأن تكـون لنا دولة ، وقرأ هرتزل خطابا من اللورد لاترسـون نائبـا عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى . وكان هذا الخطاب يقدم لنا أرض أوغندا لتكون وطنا قوميا .

وقرر أعضاء المؤتمر قبول هذا العرض .

ولكننا بعد ذلك كتمنا أنفاسه فى المهد ودفناه دون ضـجة .

وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا .

وعلى أثر هذا العرض ألفنا لجنة من عدد كبير من علمـاء اليهود سافروا الى مصر لدراسة منطقة سيناء وقابلوا فى القاهرة اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر الذى أظهـر كل العطف على أمانينا فى الوطن القومى .

ولكن اللجنة لم تجد فى منطقة سيناء ما يفى بالغرض الذى كنا من أجله نريد الوطن القومى .

ولقد قابلت بعدها لورد بلفور وزير خارجية بريطانيـا الذى بادر بسؤالى على الفور :

لماذا لم تقبلوا اقامة الوطن القومى فى أوغندا ؟

وقلت لبلفور :

ان الصهيونية حركة سياسية قومية ، هذا صحيح ، ولـكن الجانب الروحى منها لا يمكن اغفاله ، وأنا واثق تمام الوثوق أننا

اذا أغفلنا الجانب الروحي فاننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسي القومي .

ثم قلت لبلفور :

ماذا تقول لو أن أحدا قال لك خذ باريس بدلا من لنـدن ، هل تقبل ؟ »

ويستوقفني أيضا قول وايزمان :

« وعدت الى لندن فى خريف سـنة ۱۹۲۱ وكان الغرض من رجوعي أنني دعيت الى لندن لأشرف على كتابه مشروع وثيقـة الانتداب البريطاني في فلسطين .

وكان يجب أن تعرض هذه المسودة على عصبة الأمم لتصدر بها قرارا بعد أن وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الانتـداب نفسها .

وكان لورد كيرزون قد ولى وزارة الخارجية محل بلفور ، وكان هو المسئول عن وضع مشروع الوثيقة .

وكان معنا فى لندن القانوني الشهير ابن كوهين ، وهـو من أقدر واضعي الصيغ القانونية فى العالم ، وكان ايريك فوريس آدام سكرتير كيرزون يتعاون معنا .

ووقع بيننا وبين كيرزون خلاف أول وأخير :

كتبنا نحن فى مشروع الوثيقة عبارة أردنا أن نقيد بريطانيـا

فيها بوعد بلفور ، وبأن تكون خطتها فى فلسطين قائمة على أساس الوطن القومى لليهود ، وكان نص العبارة التى كتبناها نحن :

« والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية فى فلسطين » .

وقال كيرزون انه يقترح تخفيف العبارة حتى لا يهيج العرب عند قراءتها ، وقال انه يرى أن تكون كما يلى :

« والاعتراف بصلات اليهود وعلاقاتهم التاريخية فى فلسطين »

وكنت أود أن استطرد طويلا مع وايزمان فى « التجربة والخطأ » ، ولكننا جميعا نعلم أن هذه الحوادث القديمة كانت الجراثيم الأولى للمضاعفات التى مزقت كيان فلسطين ودمرت وجودها !

***

وأعود الى الذى كنت أقوله من أن الاستعمار هو القوة الكبرى التى تفرض على المنطقة كلها حصارا قاتلا غير مرئى، أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذى كان يحيط بخنادقنا فى « الفالوجا » وبجيوشنا جميعا وبحكوماتنا فى العواصم التى كنا تتلقى منها الأوامر .

ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق فى نفسى، أومن بكفاح واحد مشترك ، وأقول لنفسى :

ـــ ما دامت المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشـاكلها واحدة ، ومستقبلها واحدا .. والعدو واحدا مهمـا يحـاول ان يضع على وجهه من أقنعة مختلفة ـــ فلماذا تشتت جهودنا ؟

ثم زادتني تجربة ما بعد ثورة ٢٣ يوليو ايمانا بهذا الـكفاح الواحد وضرورته .

فقد بدأت خبايا الصـورة تنكشف ، والظـلام الذى كان يحيط بتفاصيلها ينقشع .

وأعترف أنى كذلك بدأت أرى العقبات الكبرى التى تسـد الطريق الى الكفاح الواحد ، ولكنى بدأت أومن بأن هـذه العقبات نفسها ينبغى أن تزول ، لأنها من صنع ذلك العدو الواحد نفسه .

ولقد بدأت أخيرا فى اتصالات سياسية منأجل توحيدالكفاح مهما تكن وسيلته ، وخرجت بعد شـهر من هـذه الاتصـالات بنتيجة هامة ، هى أن العقبة الأولى فى طريقنا هى «الشك» وكان واضحا أن بذور هذا الشك قد بذرها فى نفوسنا ذلك العـدو الواحد نفسه ، لكى يحول بيننا وبين الكفاح الواحد !

وأذكر أنى جلست فى الأيام الأخيرة أتحدث مع أخ من ساسة العرب ، وكان معنا زميل له ، وبدأت أتكلم ، وبدأ هو يرد على الذى أقوله ..

وكان يقول العبارة ثم يلتفت الى زميله ليرى أثر الذى يقوله فى وجهه بدل أن يحاول استكشاف أثره فى أنا .

وبدأت أقول له : تغلب على كل ما فى نفسك من شكوك، وقل لى كل ما فى قلبك ، وانظر فى عينى ولا تدر وجهك !

ولست أريد بذلك أن أهون من أمر العقبات التى تحول بيننا وبين توحيد الكفاح ، فلا شك أن بعضها معقد تمتد أصوله الى طبيعة البيئة وظروف شعوبها التاريخية والجغرافية ، ولكن المؤكد أنه يمكن مع شىء من المرونة القائمة على بعد النظر ، لا على التفريط ، ايجاد الخط الذى يستطيع الجميع أن يقفوا فيه ، بلا تحرج ، وبلا عنت ، لمواجهة الكفاح الواحد .

***

ولست أشك دقيقة فى أن كفاحنا الواحد يمكن ان يعود الينا وعلى شعوبنا بكل الذى نريده لها ونتمناه .

ولسوف أظل دائما أقول اننا اقوياء ولكن الكارثة الكبرى، أننا لا ندرك مدى قوتنا !

اننا نخطىء فى تعريف القوة ، فليست القوة أن تصرخ بصوت عال ، انما القوة أن تتصرف ايجابيا بكل ما تملك من مقوماتها .

وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لا أجد مفرا من أن أضع ثلاثة مصادر بارزة منه مصادرها يجب أن تكون أول ما يدخل فى الحساب .

أول هذه المصادر أننا مجموعة من الشـعوب المتجـاورة ، المترابطة بكل رباط مادى ومعنوى يمكن أن يربط مجمـوعة من الشعوب ، وأن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعثت فى جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاثة ، ولا يمكن قط اغفالهـا فى محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام .

هذا هو المصدر الأول .

أما المصدر الثانى : فهو أرضنا نفسها ومكانها على خريطـة العالم . وذلك الموقع الاستراتيجى الهام الذى يعتبـر بحق ملتقى طرق العالم ، ومعبر تجارته ، وممر جيوشه .

يبقى المصدر الثالث:وهو البترول الذى يعتبر عصب الحضارة المادية ، والذى بدونه تستحيل كل أدواتها ــ المصـانع الهـائلة الكبيرة لكافة أنواع الانتاج ، وسائل المواصلات فى البر والبحر والجو ، أسلحة الحرب سواء فى ذلك الطائرات المحلقـة فوق الضباب أو الغواصة المتسترة تحت أطباق الموج ــ تستحيل كلها قطعا من الحديد يعلوها الصدأ لا تنبعث منها حركة .. أو حياة .

وبودى لو وقفت قليلا عند البترول ، فلعل وجوده كحقيقـة مادية تقررها الاحصائيات والأرقام يصلح ليكون نموذجا للمناقشة فى أهمية مصادر القوة فى بلادنا .

ولقد قرأت أخيرا رسالة طبعتها جامعة شـيكاغو عن ظروف البترول ، وبودى لو كان لكل فرد من أفراد شعوبنا أن يقرأها

ويتدبر معانيها ويسرح بفكره فى المعنى الكبير الكامن وراء أرقامها واحصائياتها :

تقرر هذه الرسالة مثلا أن العمل لاستخراج بترول البلاد العربية لا يتكلف كثيرا من المال .

« لقد صرفت شركات البترول ٦٠ مليونا من الدولارات فى كولومبيا ابتداء من سنة ١٩١٦ ولم تعثر على قطرة زيت الا فى سنة ١٩٣٦ .

وصرفت هذه الشركات ٤٤ مليونا من الدولارات فى فنزويلا ولم تحصل على قطرة من الزيت الا بعد مرور ١٥ سنة .

وصرفت هذه الشركات ٣٩ مليونا من الدولارات فى جزر الهند الهولندية وأخيرا عثرت على الزيت . »

وكانت النتيجة الأخيرة التى قررتها هذه الرسالة فى هذا الموضوع :

ان رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى أمريكا هو ٧٨ سنتا .

« أن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى أمريكا الجنوبية هو ٤٣ سنتا .

وأن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى البلاد العربية هو ١٠ سنتات .

ان عاصمة انتاج البترول فى العالم قد انتقلت من الولايات المتحدة التى استنزفت آبارها وارتفع سعر الأرض فيها وزادت أجور الأيدى العاملة لأبنائها ، الى المنطقة العربية التى مازالت آبارها بكرا ، والتى مازالت أراضيها الشاسعة بلا ثمن ، والتى مازالت يدها العاملة تقبل ما دون الكفاف .

ولقد ثبت أن نصف الاحتياطى المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية ، والنصف الباقى موزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبى وغيرها من بلاد العالم

وثبت أيضا أن متوسط انتاج البئر الواحد فى اليوم من الزيت هو :

١١ برميلا فى الولايات المتحدة .

٢٣٠ برميلا فى فنزويلا .

٤٠٠ برميل فى المنطقة العربية .

هل أوضحت مدى أهمية هذا العنصر من عناصر القوة ؟ أرجو أن أكون قد وفقت .

واذن فنحن أقوياء ، أقوياء ليس فى علو صوتنا حين نولول ، ولا حين نصرخ ، ولا حين نستغيث ، انما أقوياء حين نهدأ ، أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقى لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التى تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا

يمكن عزل جزء منها عن كلها ، ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة .

***

هذا عن الدائرة الأولى التي لا مفر من أن ندور عليها وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا ، وهي الدائرة العربية .

فاذا اتجهت بعد ذلك الى الدائرة الثانية ، وهي دائرة القارة الافريقية قلت دون استفاضة ودون اسهاب. اننا لن نستطيع بحال من الأحوال ــ حتى لو أردنا ــ أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الافريقيين .

لا نستطيع لسبب هام وبديهى هو أننا فى أفريقيا.

ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع الينا، نحن الذين نحرس الباب الشمالي للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله .

ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء .

ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة .

ويبقى أيضا أن السودان ـ الشقيق الحبيب ـ تمتد حدوده الى أعماق افريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة فى وسطها .

والمؤكد أن افريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مثير ، وأن الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوروبية يحاول الآن اعادة تقسيم خريطتها ، ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذى يجرى فى افريقيا ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعنينا .

ولسوف أظل أحلم باليوم الذى أجد فيه فى القاهرة معهدا ضخما لأفريقيا يسعى لكشف نواحى القارة أمام عيوننا ويخلق فى عقولنا وعيا أفريقيا مستنيرا ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها .

***

ثم تبقى الدائرة الثالثة .. الدائرة التى تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتى قلت انها دائرة اخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس الى قبلة واحدة ، وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات .

ولقد ازداد ايمانى بمدى الفاعلية الايجابية التى يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الاسلامى بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية الى المملكة العربية لتقديم العزاء فى وفاة عاهلها الراحل الكبير .

ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخـواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل اليها الاسلام ، ثم وجدتنى أقول لنفسى :

ــ يجب أن تتغير نظرتنا الى الحج ، لا يجب أن يصبح الذهاب الى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد ، أو محـــاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة .

يجب أن تكون الحجج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم الى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صورا طريفة لقراء الصحف ، وانما بوصفه مؤتمرا سياسيا دوريا يجتمع فيه كل قادة الدول الاسلامية ورجال الرأى فيها ، وعلماؤها فى كافة أنحاء المعرفة ، وكتابها ، وملوك الصناعة فيها ، وتجـارها وشبابها ، ليضعوا فى هذا البرلمان الاسلامى العالمى خطوطا عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معا ، حين يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام .

يجتمعون خاشعين .. ولكن أقوياء ، متجردين من المطامع .. لكل عاملين ، مستضعفين لله .. ولكن أشـداء على مشـاكلهم وأعدائهم ، حالمين بحياة أخرى .. ولكن مؤمنين أن لهم مكانا تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله فى هذه الحياة .

وأذكر أنى قلت بعض خواطرى هذه لجلالة الملك سعود ، فقال لى الملك :

ــ ان هذه هى فعلا ، الحكمة الحقيقية من الحج .

وفى الحق أنى لا استطيع أن أتصور للحج حكمة أخرى .

وحين أسرح بخيالى الى ثمانين مليونا من المسلمين فى اندونيسيا وخمسين مليونا فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان ، وأكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفيتى ، وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض المتباعدة — حين أسرح بخيالى الى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج باحساس كبير بالامكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصيلة بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة .

ثم أعود الى الدور التائه الذى يبحث عن بطل يقوم به ..

ذلك هو الدور ، وتلك هى ملامحه ، وهذا هو مسرحه ..

ونحن وحدنا بحكم « المكان » نستطيع القيام به :

الدار القومية للطباعة والنشر

مصلحة الإستعلامات